(٥)

مستقبل الدور المصري في العالم العربي

يشير التاريخ إلى أن مصر عبر العصور كانت تحتل موقعًا معينًا لدى الدول الرئيسية في النظم الدولية المتعاقبة، وكانت الدول الرئيسية في هذه النظم تخطط لسياسة ما تجاه مصر. وكانت هذه الدول تعمد إلى أحد خيارات ثلاثة في هذا الشأن:

فإما أن تحتل مصر وتلحقها بأملاكها، وإما أن تعادي مصر معاداة لا تلبث أن تنقلب إلى احتلال، وإما أن تصادق مصر مصادقة تنتهي في الغالب إلى مصادرة القرار السياسي المصري.

وليس معنى ذلك أن مصر في جميع العصور لم تكن مستقلة، ولكن الثابت أن التاريخ المصري ينقسم إلى حقب ثلاث من هذه الزاوية:

الحقبة الأولى، هي الحقبة الفرعونية، والتي كان الخط السائد فيها بشكل عام هو استقلال مصر، فيما عدا حالات الغزو الأجنبي القليلة بالنسبة إلى آلاف السنين التي استغرقها العصر الفرعوني.

أما **الحقبة الثانية**، فهي التي بدأت بالاحتلال اليوناني، فالروماني، فالعربي الإسلامي، فالتركي، فالأوروبي، مع التسليم بأن الغزو العربي الإسلامي لا يتشابه في الجزء الأعظم منه مع الغزوات الأجنبية الأخرى، على الأقل فيما يتصل بأنه كان غزواً دينياً وثقافياً، وأنه شكل ثقافة مصر ودينها. وهذا العامل هو الذي يسمح لنا بالحديث بشكل ما عن علاقة مصر بالعالم العربي في أصوله التاريخية على الأقل.

أما **الحقبة الثالثة**، فهي التي تبدأ حسب تقسيمنا بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ولاتزال حتى الآن. وخصائص هذه الحقبة، وهي تشبه الحقبة الفرعونية من هذه الزاوية، هي أن المصريين أنفسهم هم الذين يحكمون مصر. واعتقد أن دراسة موقف الدول الرئيسة في النظم الدولية المتعاقبة، ونمط العلاقات بينها وبين مصر، تتصل اتصالاً وثيقاً بموضوعنا،

وهو متى يظهر الدور المصري في المنطقة العربية، وضرورته لمصر والمنطقة، ومتى يتدهور، ومتى يكون هذا الدور مستقلاً أو تابعاً. وحتى لا نبتسر عصور التاريخ، فإن مثل هذه الدراسة تحتاج إلى التوثيق وحسن الاستنتاج والتركيز، حتى يمكن بناء نظرية متكاملة في هذا الباب، وأرجو أن يتمكن من ذلك طلاب الدراسات التاريخية والسياسية، وأن يتصل اهتمام هذه الفروع في بوتقة واحدة يمكن أن تفيد في استخلاص الحقائق الموضوعية في هذا الباب.

وعندما قررت الكتابة في هذا الموضوع تقافز إلى ذهني الكثير من جوانب الدور المصري، وخاصة المعاصر. ويمكن أن نسجل في هذا الموجز الملاحظات التالية:

الملاحظة الأولى، هي أن مصر الحديثة التي يتفق المؤرخون على أنها تبدأ بعصر محمد على كانت تنظر إلى العالم العربي من زاوية استراتيجية، ولم تكن ترى أمامها هذا العالم من زاوية ثقافية أو سياسية. ولذلك، فإن تدخل مصر في الجزيرة العربية والسودان – في تلك الفترة– يمكن أن يفسر في سياق مختلف. ويستطيع المؤرخون أن يقدموا خدمة كبرى لدارسي العلوم السياسية بتوثيق الوقائع حتى يمكن النظر إليها من الزاوية السياسية بطريقة مريحة. ومن الواضح أن مصر توقف دورها في المنطقة العربية منذ الاحتلال البريطاني لها، والذي يبدو أنه بحاجة هو الآخر إلى دراسة موسعة حول العلاقات المصرية العربية في زمن الاحتلال. ومن المفيد، تطوير الدراسات التاريخية التي أصلت لعلاقة مصر بالمنطقة العربية حتى رغم أن هذه الدرسات كانت تحاول أن تؤصل بشكل مغرض للدور المصري في العالم العربي. ويقصد بكلمة «مغرض» هنا هو تعمد التأكيد على جذور العلاقات المصرية العربية، ولكن الدراسة التي أرجو أن تتم في المدرسة التاريخية المصرية تهدف إلى أمرين:

الأول، بيان مدى الوعى المصري بمحيط مصر العربي من الناحية الثقافية، التي كان يطلق عليها جميعاً «الدول الشرقية»، ويقصد بها في ذلك الوقت الدول الإسلامية.

وأما الأمر **الثاني**، فهو دراسة وجود سياسة مصرية تجاه المنطقة العربية، أي سياسة متعمدة وضعت خصيصاً لتحقيق أهداف معينة في المنطقة العربية.

ودون أن أقفز على نتائج هذه الدراسات المقترحة، أو أن أستبق بشكل مبتسر هذه النتائج، فإننى أستطيع القول إجمالاً، أن مصر لم يكن لها دور بالوصف الذي قدمناه في المنطقة العربية قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢. ومن الواضح أن مصر الثورة قد أدركت أن تصفية الاستعمار في العالم العربي يؤدي إلى زعامة مصر لهذا العالم حتى لو كان بعض حكام العالم العربي في ذلك الوقت يتعاونون أو يتفاهمون مع هذا الاستعمار، ذلك ان البُعد الشعبى في الثورة المصرية كان أشد وضوحاً فقط في المنطقة العربية، وربما في بعض الجوانب في مصر، رغم أن من أشد المآخذ على الثورة المصرية أنها في الوقت الذي طالبت المواطن المصري لأن يرفع رأسه بعد زوال عصر الاستعمار، فإن الثورة قد ناقضت نفسها عندما رفعت شعاراً زائفاً ظاهره الرحمة وباطنه العذاب، وهو تجزئة حرية الوطن والمواطن، فاستباح الحكام حقوق المواطن تحت ستار التركيز على تحرير الوطن، رغم أن الحقيقة الثابتة هي أن الوطن الحر لا يقبل إلا مواطناً حراً، ولا تقوم حرية الوطن إلا على أكتاف أبنائه الأحرار، ولكن هذا الشعار الذي صكه بعض المثقفين المغرضين كان يهدف إلى تسويغ الاستبداد، ومصادرة الحريات.

الملاحظة الثانية، هي أن الدور المصري قد ضرب في العالم العربي ضربة موجعة بهزيمة مصر المروعة عام ١٩٦٧، وهذه الهزيمة كان سببها الأساسى هو سوء إدارة الشئون المصرية في الداخل والخارج، والقصور في فهم المتغيرات الدولية. ورغم محاولاتنا فهم معنى الأحداث التي تكاثفت خلال الفترة من ٣٠ مايو حتى ٥ يونيو ١٩٦٧، فإن هذه الأيام الستة تحتاج إلى تركيز وإضاءة من المؤرخين السياسيين باعتبارها مفصلاً خطيراً في تاريخ مصر المعاصرة. (اصطلح على تسمية حرب ١٩٦٧بـ «حرب الأيام الستة»، التي تبدأ بيوم ٥ يونيو، وأظن أن إسرائيل تقصد بالأيام الستة هي الأيام التي أشرت إليها، على أساس أن يوم ٥ يونيو كان بداية تنفيذ كل ما تم تخطيطه خلال الأيام الستة السابقة عليه).

الملاحظة الثالثة، لا نظن أن الدور المصري قد استعاد قوته خصوصاً بعد وفاة جمال عبدالناصر، حيث أصبح الخلاف جسيماً بين مصر والعالم العربي منذ عام ١٩٧٤، وبشكل أكثر وضوحاً منذ زيارة الرئيس السادات للقدس في ١٨ نوفمبر ١٩٧٧، ولم يعد للدور المصري قائمة منذ ذلك التاريخ، بل بدأ التراجع المصري بشكل مخيف بعد أن تم توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل عام ١٩٧٩، وبدأت الولايات المتحدة تخطط لإعادة رسم الجغرافية السياسية

للمنطقة العربية، بحيث تصبح بغداد وليس القاهرة هي عاصمة العالم العربي، حتى لو تم ذلك عن طريق احتلال العراق، وإعادة تنظيمه لكي يكون صالحاً للحقبة الجديدة.

ولكن التساؤل هو هل لا يزال هناك رغبة مصرية وعربية في أن يكون لمصر دور؟ وهل هناك بقايا للدور القديم؟ وكيف تنظر مصر والمنطقة العربية إلى مثل هذا الدور، إن كان مرغوباً، وكيف يمكن التوفيق بين الدور المصري والهيمنة الأمريكية والإسرائيلية؟ وما هي مقومات الدور المصري المرغوب من الشعب المصري والشعوب العربية على الأقل؟ وكيف تفكر القيادة المصرية في انتماء مصر العربي، وفي جدوى دور عربي لمصر في عصر العولمة السياسية والثقافية في المنطقة العربية؟ تلك التساؤلات وغيرها هي ما تحاول هذه الورقة أن تقدم إجابة وتحليلاً لها.